٦٤ الذينَ لا يشهدونَ الزُّور

عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله :

يقول الله تعالى :

((اشتدَّ غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد ناصراً غيري))[١]

من صفات عباد الله أنهم لا يشهدون الزُّور ، وهي صفة لها شأن كبير عند الله ؛ لأنها ميزانٌ عادلٌ للمجتمع ، ولأن بها يسود العدلُ بين الناس ، وينتظم أمرُ الناس ، ويعلم الضعيف والمظلوم أنه لن يضيع حقهما ؛ لذلك كان من عباد الله أولئك ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه قرن بين قَول الزُّور وعبادة الأوثان والشرك بالله ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج]

فقرنَ سبحانه عبادةَ الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك سلَّم النبى ﷺ يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : ((ألاَ وإن شهادةَ

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الصغير (١ / ٣٠) ، وذكره المنذري في الترغيب (٣ / ٣٢٨) ونسبه الطبراني في الصغير والأوسط ورمز له بالضعف .

الزور جعلها اللهُ بعد الأوثان)) [1]

لماذا ؟ لأن في شهادة الزور جماعاً لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إلهٌ فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهدُ زور ، ساعة يقول : الإله له شريكٌ ، فهذه شهادةُ زور ، وقائلها شاهدُ زور ، كذلك حين يظلم أو يُغيِّر فى الحقيقة ، أو يذم الآخرين ، كلها دخلةٌ تحت شهادة الزور .

ولمـــا عدَّد النبى ﷺ الكبائر ، قال : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ــ وكان مُتكئاً فجلس ــ فقال : ألا وقولُ الزور ، ألاَ وقول الزور ، قال الراوى : فما زال يُكرِّرها حتى قلنا : ليته سكت ، أو حتى ظننا أنه لا يسكت)) [2] .

ويقولون فى شاهد الزور : يا شاهد الزور ، أنت شرٌّ منظور ، ضللتَ القضاةَ ، وحلفتَ كاذباً بالله .

ومن العجيب فى شاهد الزور أنه قبل أن يسقط من نظر الناس ، يسقط أولاً مـــن نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شهد لصالحك ورفع رأسك على خـــصمك لكـــن داستْ قدمُك على كرامته وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة فى

---

(١) عـــن خـــريم بـــن فاتك الأسدى رضي الله عنه قال : ((صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله (قالها ثلاثاً) ، ثم تـــلا هذه الآية : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] أخـــرجه الإمـــام أحمـــد فـــى مسنده (٤ / ٣٢١) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) ، والتـــرمذى فى سننه (٢٣٠٠) . قال الترمذى : هذا عندى أصحّ من حديث أيمن بن خريم)) وخُرَيْم ابن فاتك له صحبة .

(٢) حـــديث مـــتفق علـــيه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان من حديث أبى بكرة .

قضية أخرى ، فأنت أولُ مَنْ تفضحه بأنه شهد زُوراً لصالحك .

فمَـن يـشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له ، فإنْ جاء يـشهد ، أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجـب على كلِّ مَنْ يطلب من إنسان شهادةَ زور أنْ يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقط فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهدَ الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكلُّ ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

والزور هو الشيء الكذب ، ويُزور فى الشهادة أى : يثبت الحق لغير صاحبه ، لكن نلاحظ أن الآية لم تَقُلْ : والذين لا يشهدون بالزور ، مما يدل على أن للآية معنىً أوسع من النطق بقولّ الزُور فى مجال التقاضى ، حيث تقول عند القاضى : فلانٌ فعل ، وهو لم يفعل .

فللشهادة معنى آخر . أى : لا يحضرون الزور ، والزور كلُّ ما خالف الحق ومنه-قوله تعالى فى شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

فمعنـــى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفـــرقان] أى : لا يحـــضرون الباطل فى أىِّ لوْن من ألوانه ، قوْلاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف الحق .

ومعلوم أن قولّ الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرّ بالمجتمع ؛ لأنـــك حين تشهد بالزور تأخذ الحقَّ من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلـــى تعطُّـــل حركة الحياة ، وتجعل الإنسانَ لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيُحجم الناسُ عن السعى والعمل ، ما دامتْ المسألةُ زوراً فى النهاية ؟

لماذا ؟ لأن شهادةَ الزور تهدم كلَّ قضايا الحقِّ فى المجتمع .

والحق سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء]

فلا يكفى أن يكون المؤمنُ قائماً بالقسط فقط ، بل لا بدَّ أن تكون الشهادةُ لله والشاهد فى العادة هو مَنْ يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقرُّ الشاهدُ بذنب فهو قد شهد على نفسه .

والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم ، والشاهد على نفسه يُقرُّ بما فعل ، والإقرار سيد الأدلة ، وشهادة الشاهد تقدم للقاضى الدليلَ الذى يُرتب عليه الحكم ، وهكذا يشهد المؤمنُ على نفسه .

وهناك معنىً آخر : أنه يشهد على نفسه ، ولو كانت الشهادةُ تجرُّ وبالاً عليه ، وهذه المعانى من معطيات الإشعاعات القرآنية ، فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد لا تكون الشهادةُ على النفس ، بل قد تكون الشهادةُ واجبةً عليه يُؤديها لمصلحة غيره ، ولا يخاف فيها الشاهدُ من السلطان ، وحتى وإنْ جارَ السلطان على المؤمن وأصابه بوبال فى نفسه أو ماله .

ومن الناس مَنْ أصابه وبالٌ فى نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلتْ ، فالسلطان قد لا يأخذ الإنسانَ فقط بذنبه ، بل قد يأخذ أهلَ الإنسان بهذا الذنب . والحق سبحانه يوضح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولنَّ :

سيعذبون العيال ، أو سيأخذون كل شيء ، إننى أنا الموجود المتكفل بعبادى .

وحـــين يشهد الإنسانُ على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحدُ أقاربه أعزَّ منه.

ثـــم يـــدخل بنا الحقُّ إلى أن العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجح هو هوى النفس ، ومنشأ الهوى أن يكون المشهودُ عليه غنياً ، فيخافُ الإنسانُ أن يشهدَ عليه ، فيمنعه من خير ما .

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ، ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقـــارب ، ولا يصح أن يضع أحدٌ من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه فى البال ، بل يجب أن يكون البالُ مع الله فقط .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ .. ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء]

وقـــد يقـــول القائل : إن الهوى قد ينحاز إلى الغنى طمعاً فى ثرائه ، فلمـــاذا يذكـــر اللهُ الفقير أيضاً ؟ ونقول : قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقيـــر ، فيحدِّث الشاهد نفسه ((أنه فقير ويستحق الرحمة)) ؛ لذلك يُحذِّرنا الحق من الانحياز إلى الغنىّ ، أو إلى الفقير .

ولا دخـــلَ للشهادة بثراء الثرىّ أو بفقر الفقير ، لأن العبدَ المؤمن ليس أولَـــى أو أحقَ برعاية مصالح الناس من خالقهم ــ جلَّ شأنه ــ ولذلك جاء بالحيثـــية الملجمة ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ

تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء]

أى : أنــك أيهــا العبد لم تخلق أحداً منهما ، ولكن الله خالقُ الاثنين ، وهو أَوْلَى بهما ، فليس لك أن تقيمَ شهادتك على الثراء أو على الفقر ؛ لأنك لستَ القيِّم على الوجود .

والذى يفسد ويُشوِّش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : ((آفة الرأى الهوى)) . وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل ، وتجنحوا بعيداً عنه .

﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء]

اللــىُّ هو التحريف ، أى : إنْ تلووا فى الشهادة وتُحرِّفوها وتُغيِّروها فــإن اللهَ بما تعملون خبيرٌ ، أو : أنْ يعرض الشخصُ عن أداء الشهادة لأنه يخــاف من المشهود عليه ؛ لذلك يُقال : إنه خائفٌ من المشهود عليه ؛ لذلك يُقــال : إنه خائفٌ من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له ؛ لهذا فهو يُعرض عن الشهادة ، وإنْ جاء للشهادة فهو (يلفّ) الكلمات ويلوى لسانه بها .

والــشهادة ــ كما نعلم ــ تُطلق على متلازمات متعددة ، يجمعها كلها كلمــة (الحضور) ، كقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحــج] أى : أن نداء الحج يسمعه الناسُ ، فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل ، وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم .

ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ، فتسأله النيابةُ فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الدفاع فيقول ما رأى ومادام الشاهدُ صداقاً فلن يخشى محاورةَ أىِّ طرف يسأله ، والأطراف التى تسأل الشاهدَ تطلب منه أن يأتىَ بالواقعة على أساليب مختلفة .

وما دامتْ الواقعةُ صادقةً تظل كما هى مهما تنوعتْ الأسئلةُ ، وتغيَّرتْ الأساليب ؛ لأن الشاهدَ الصادق يستوحى واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فيلف ويدور ويُغيِّر من أقواله ، ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث فى ذاكرة الشاهد عن أدقّ الخفايا .

وفى قصة سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ نرى كيف أوقع الحقّ بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم فى الرحلة إلى مصر ، وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه ، وكيف كان الصراعُ بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير .

فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]

ونعرف أن إخوةَ يوسف كذبوا فى المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف ، لكنهم صدقوا فى المرة الثانية التى احتُجز فيها شقيقُ

يوسف [1] ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم : إما أهل القرية التى كانوا بها ، وإما رفاقهم فى القافلة .

لقد أخبروا أن أخاهم قد استُخرج من وعائه بعضٌ من أدوات الملك ، وهو الصُواع الذى كان يُكال به ، ولهذا جاءتْ شهادتهم هذه المرة مطابقةً للواقع ، وهو ما أخبروا به .

إذن : فالشهادة هى الفيصل فى التنازع ؛ ولذلك يوصى النبىُ ﷺ ألاَّ يشهد الرجلُ على أمر إلا بعد أنْ يكونَ قد رآه رَأْىَ العين ، كما يرى الشمس: ((على مثلها فاشهد أو دع)) [2] .

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود ؛ ولهذا تأتى الشهادةُ فى لوازم متعددة ، فهى مرة تعنى الحضور ، وهى مرة تأتى بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى الإقرار ، وكلها معان ملتقية .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظةَ وقوع المشهود به ، والثانى : هو أمانةُ النقل . ولذلك جعل الله فى بعض الأحكام شهادةَ اثنتين من النساء تعدل شهادةَ رجل واحد .

وقد يقول قائل : كيف يساوى الإسلامُ بين شهادة رجل جاهل ، أو أميٍّ وشهادة امرأتين قد تكون كلٌّ منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

---

(١) شقيق يوسف هو بنيامين ، وهو أخوه لأبيه يعقوب وأمه راحيل ، أما باقى إخوته والذين فعلوا فيه ما فعلوا فكانوا إخوته لأبيه فقط ، فأمهم أخت راحيل الكبرى .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢ / ٩٣) ، والحاكم فى مستدركه (٤ / ٩٨) بلفظ : ((يا بن عباس لا تشهد إلا على ما يضيء لك كضياء هذا الشمس)) وأومأ رسول الله ﷺ بيده إلى الشمس . وصححه الحاكم ولكن وهَّاه الذهبى .

ونقول : إن المسألةَ فى الشهادة ليست عملَ عقل ، ولكنها أمانةُ نقل ، وأمانةُ النقل لا شأنَ لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأةَ يكون دائماً أمرُها مبنياً على الستر وعدم التهجُّم على الرجال ، فقد تقع حادثةٌ وتوجد امرأةٌ بجانب هذه الحادثة .

وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كلِّ التفاصيل ، على العكس من الرجل الذى يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل ما جرى ، وحين أراد الحقُّ الشهادةَ من امرأتين ، لم يطلب ذلك لضعف الثقة في المرأة أو زيادة الثقة فى الرجل ، ولكن لأن الشهادةَ ليست ابتكارَ عقل ، ولكنها حضورُ مشهد وأمانةُ نقل .

فعباد الله يخافون الله ويخشونه ، أنْ يقولوا أو يشهدوا زوراً ، بل إن ألسنتهم لا تنطقُ إلا حقاً ، فيتهيَّبون أنْ يقفوا موقفاً يكونون فيه سبباً لظلم أحد بشهادة زور أو قولٍ باطل .

وسيرة نبي الله ﷺ مع زوجاته تعطينا مثالاً حياً على الورع والتقوى ، ففى موقف من أصعب المواقف التى مرَّت على الرسول ﷺ ، وهو تلك الفرْية التى افتراها المنافقون على زوج نبي الله ﷺ عائشة بنت أبى بكر الصدِّيق ، ورميها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل الذى قال عنه النبى ﷺ : لقد ذكروا رجلاً ما

علمتُ عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى .

وقد سأل نبي الله ﷺ زوجته زينبَ شهادتها فقال : ما علمت ؟ وما رأيت ؟ فقالت زينب رضى الله عنها : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمتُ إلا خيراً .

أى : أصـــون ســـمعى وبـــصرى مـــن أن أقولَ سمعتُ ولم أسمع ، وأبصرتُ ولم أبصر . ولم تدفعها الغيرة وما كان يقع بينها وبين عائشة إلى الافتراء عليها ، بل قالت : والله ما علمتُ إلا خيراً .

لـــذلك قالت عائشة رضى الله عنها : عصمها اللهُ بالورع ، وهى التى كانت تفاخرنى وتُضاهينى بجمالها ومكانها عند النبى .

وهـــذا هـــو حال عباد الله أنْ يحموا أسماعهم وأبصارهم أنْ يقولوا : سمعنا وهم لم يسمعوا ، وأبصرنا وهم لم يبصروا .

والحـــق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فالله عزَّ وجلَّ يتحدث هنا عن المسئولية مسئولية كلِّ إنسان عن سمعه وبـــصره ، والمـــسئولية أمام الله فردية لا يُسأل أحدٌ عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحسبْ ، فناسب ذلك أنْ يقولَ : السمع والبصر . لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسان ــ إذن ــ مسئولٌ عن سمعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّى ، تلقِّى القضايا العلمية التى سنسيرُ عليها فى حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعى إلا خيراً ، ولا تتلقـــىْ إلا طيـــباً ، ويا مُربِّى النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تُعط لأذنه إلا ما يُصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترَىْ إلا الحلال الذى لا يهيج غرائزك إلى الشهوات.

ويـــا مُربِّـــى النشء احجب عنه ما يثير الغرائزَ ويفسد الحياةَ ، وبذلك نُربِّى فى المجتمع المعلومات الصحيحة التى تتبنى عليها حركةُ حياته .

ومـــا دُمتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئوليةَ ومُحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقـــولَ : ســـمعت وأنت لم تسمع . وإياك أنْ تقول : رأيت وأنت لم ترَ . إيـــاك أن تتعـــرض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن ، أو تتبنى قضية خاطئة وتبنى عليها حركة حياتك ، لأن المبنىّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنيَ على مقدمات صحيحة أنتج النتيجةَ الصحيحة .

وتتأكد هذه المسئولية عندما يستمع الإنسانُ لقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

إنـــه قولٌ ومشهدٌ يضع العبدَ فى مواجهة أعضائه التى كانت طيِّعةً له فى الدنيا لا تخالف أمره ، فإذا بها هى التى تنطقُ وتتكلمُ شاهدةً عليه .

فالجـــوارح التـــى كانـــت مُطيعةً له فى الدنيا وجعل له سيطرةً على جوارحه وجعلها خاضعةً لإرادته ، لا تعصيه فى خير أو شرٍّ ، فبيده يضربُ ويعـــتدى، وبيده يُنفق ويقيل عثرةَ المحتاج ، وبرجله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجـــوارحه فى كلِّ هذا مُسخَّرة طائعةٌ لا تتأبَّى عليه ، حتى وإن كانت كارهةً للفعل ، لأنها منقادةٌ لمراداتك ففعلها لك ليس دليلاً على الرضا عنك ، لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذٌ على جنوده حتى وإن

كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائدُ السيطرةَ وأصبح الجنودُ أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كـــذلك فى الدنيا جعل اللهُ للإنسان إرادةً على جوارحه فلا تتخلف عنه أبـــداً، لكنها قد تفعل وهى كارهةٌ وهى لاعنةٌ له ، وهى مبغضةٌ له ولفعله ، فـــإذا كان يوم القيامة وانحلَّتْ من إرادته وخرجتْ من سجن سيطرته شهدتْ عليه بما كان منه .

ويُحدِّثـــنا الحـــقُّ ســـبحانه عـــن الذين خرجوا عن منهج الله وسخَّروا أعـــضاءهم فـــى معصية الله ، فيقول تعالى : ﴿ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

فكـــأن جـــوارحَ الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتنى فى الدنيا ، وأكرهتنـــى على فعل أشياء لم أكُنْ لأفعلها لأننى عابدةٌ مُسبِّحةٌ لله ، وإن ما أمرتنى به يخرج عن طاعة الله عز وجل .

فأبعـــاضُ الجـــسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة ، فإن كنتَ عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك ، وإن كنتَ غير ذلك كانت جوارحك ضدك .

فالجوارح تنطق لتقيمَ الحجةَ على المذنبين ، وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزومَ له ، لأن الجوارحَ كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ، فاليد هى التى امتدتْ لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قَولَ الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشتْ إلى المعصية .

فالجـــوارحُ تقول يوم القيامة لأصحابها : كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصى رغماً عنا ، لأننا كنا مُسخَّرين لكم فى الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا ، فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

والحـــق ســـبحانه يشدّد على أهمية الصدق ، فيقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]

فالصدق هو الخُلَّة التى تجمع كل الإيمان ، فحين سُئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمنُ بخيلاً ؟ قال : نعم فقيل له : أيكون المؤمنُ كذاباً ؟ فقال : لا .

والحـــديث يوضح لنا فظاعةَ الكذب وشناعة ، وكيف أنه أعظمُ من كلِّ هـــذه المنكرات ، فقد جعل اللهُ لكل منها عقوبةً معلومة فى حين ترك عقوبة الكذب ليدلَّ على أنها جريمةٌ أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفةٌ لا تليق بالمؤمن ولا تُتصوَّر فى حقه .

والحـــق ســـبحانه يضع الشهادةَ مكانةً عاليةً فى منهج الله لتسيير حياة البشر ، لذلك وضع لها مبادئ فى آية الدَّيْن ، فقال تعالى :

﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

وهـــو زيادة فى التوثيق ، يريد به سبحانه أن يُؤمِّنَ الحياة الاقتصادية

عند غير الواجد ، لأن الحاجة عندما تكون مُؤمَّنةً عند غير الواجد فالدولاب يمشى وتسير حركةُ الحياة الاقتصادية .

ولمـــاذا قال الحق : (شَهِيدَيْن) ولم يقل : شاهدين ؟ لأن مطلق شاهد قـــد يكون زوراً ، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة ، كأنه شاهدٌ عرفه الناسُ بعدالـــة الشهادة حتى صار شهيداً ، إنه إنسانٌ تكررتْ منه الشهادةُ العادلة ، واستأمنه الناسُ على ذلك ، وهذا دليلٌ على أنه شهيد .

فالعدالة أساسٌ فى عملية الشهادة ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ ﴾

[الطلاق]

وثانـــى مبادئ الشهادة فى منهج الله قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ .. ۝٢٨٢ ﴾ [البقرة]

وفـــى الـــشهادة مـــرحلتان : مرحلة التحمُّل ، ومرحلة أدائها . فعندما نطلـــب مـــن أحد الناس قائلين : تعالَ اشهد على هذا الدَّيْن مثلاً فليس له أن يمتـــنع ، وهـــذا هو التحمُّل ، وكذلك عند طلبه لأداء الشهادة أمام القاضى ، فليس للشهداء أنْ يأبوا إذا ما دُعُوا تحمُّلاً أو أداءً .

ولكـــن لا ينبغى أن تتعطل مصالحه لأجل أنه عادلٌ ولأنه شهيدٌ ، وهنا يأتى المبدأ الثالث فيقول تعالى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .. ۝٢٨٢ ﴾[البقرة]

فالشهادة هنا تتطلب أن نحترمَ ظروف الشهادة ، فإنْ كان عند الشاهد عملٌ أو امتحانٌ أو صفقةٌ أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : لك أنْ تتعيَّنَ في التحمُّل حيثُ لا يوجد مَنْ يُوثَق به ويُطمأنُ إليه ، أما في الأداء فأنت مضطرٌ .

لذلك علينا أن نبحثَ عن شاهد له قدرةُ السيطرة على عمله بدرجة ما . وإن لم نجد غيره فماذا يكون الموقف ؟

لقد قال الحق : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] إذن : علينا أن نبحثَ له عن جُعْل يُعوِّض عليه ما فاته ، فلا نلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عدالته وبالاً عليه ، لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه ، والله لا يحمي الدائن والمدين ليضرَّ الكاتب أو الشهيد .

فالحق سبحانه يريد أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يُبقي على مصلحته ، ومن هذا المبدأ القرآني أخذت القوانين الوضعية عند استدعاء شاهد من مكان ليشهدَ في قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهاباً وبالنفقة إياباً ، وإن اقتضى الأمر أن يبيتَ فله حقُّ المبيت وذلك حتى لا يُضار ، وهو يؤدي الشهادة ، وحتى لا يتعطل الشاهدُ عن عمله أو أن يصرفَ من جيبه .

ويريد الحق سبحانه أيضاً أن يضمنَ مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة ، لذلك اعتبر الإضرار بالشاهد فُسوقاً ، فقال تعالى :

﴿ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد ، أو أن يقع

الضرر على الكاتب أو الشهيد ، ففعل الضرر فسوق أى : خروج عن الطاعة .

ويُحذِّرنا الحق سبحانه من كتم الشهادة ، فيقول : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

فكلمة الشهادة هى عن أمر مشهود واقع ، ومادام الأمرُ مشهوداً وواقعاً فإنه يُلحُّ على نفس مَنْ يراه أن يخرج ، فإياك أن تكتبه بالكتم ، وكأن الطبيعةَ الإيمانية الفطرية تُلح على صاحبها لتُنطقه بما كان مشهوداً له لأنه واقع .

والواقع لا يتغيَّر أبداً ، لذلك فالإنسانُ الذى يحكى لك حكاية صدق لا يختلف قوله فى هذه الحكاية ، حتى وإنْ رواها ألفَ مرة ، لأنه يستوحى واقعاً ، أما الكاذب فى شهادته صاحب شهادة الزُّور فيستوحى غيرَ واقع ، فتجده يقول كلمة ثم ينسى أنه كذب من قبل فيكذب كذبةً أخرى ، فينكشف أمره ويسقط فى نظر الناس ونظر مَنْ شهد له .